

## المحاضرة الثانية

### السيمياء تاريخيا

إيتحدد تاريخ السيميولوجيا عادة من خلال الإحالة إلى عالمين من الفكر الإنساني الحديث وهما فردناند دوسوسير والأمريكي شارل ساندرس بيرس، فمنذ خمسين سنة خلت بشر عالم اللسانيات السويسري فردناند دوسوسير ( 1857 - 1916 ) بميلاد علم جديد أطلق عليه اسم "علم السيميولوجيا" الذي ستكون مهمته

( هي دراسة حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية ويعتبر هذا العلم جزءا من علم النفس العام ) " هذا العلم الذي توقع أن تكون اللسانيات سوى جزء منه . " فهذا العلم سيحيطنا علما بحقيقة الأدلة وبالقوانين التي تتحكم فيها ، ولأنه لم يوجد بعد فلا يمكن التنبؤ بمصيره ، لكن له حق الوجود فمكانه محدد مسبقا وما اللسانيات سوى فرع من هذا العلم العام ... "

في حين أطلق بيرس على هذا العلم مصطلح السيميوطيقا ( **sémiotique** ) ، وقد قضى ما يقارب نصف حياته في صياغة مفاهيمه وبلورتها إلى حد اعتبره الأساس الذي قامت عليه كل العلوم وسيصنفه ضمن المنطق ، فالمنطق في معناه العام ليس سوى تسمية أخرى للسيميوطيقا ، وبهذا فهو جزء من بناء فلسفي مهمته رصد وتتبع حياة الدلالات التي ينتجها الإنسان من خلال جسده ولغته وأشياءه ، وخصائصه وزمنه وباختصار من خلال كل ما يمسه أو يحيط به ، ويقول شارل ساندرس بيرس " أعني بعلم السيميوطيقا مذهب الطبيعة الجوهرية والتنوعات الأساسية للدلالة الممكنة "

وفي هذا الإطار نستعرض ما طرحه ( إيكو ) لتحديد الفترات الزمنية لهذا العلم ويمكن تلخيصها على هذا النحو الآتي :

1) المرحلة الأولى : مرحلة الرواقين : إن الرواقين الذين يرجع أصلهم من العمال الأجانب في أثينا هم أول من

قال بأن للعلامة " **Signe** " وجهين : دال ومدلول **Signifiant- Signifie** ."

ويشير ( إيكو ) إلى وجود علاقة بين كل أنواع العلامات ، وكل أنواع السيميائيات ، بحيث لا يكون الأمر قاصرا

على العلامة اللغوية فقط . وإنما أيضا العلامة المنتشرة في شتى مناحي الحياة الاجتماعية مثل اللباس ونظام الأزياء أو الموضة السائدة في مجتمع ما ، والتي تشكل علامات وأنظمة علامات تختلف من مجتمع إلى آخر كما هو الحال في آداب التحية في اليابان ، علامات الزواج نظام المطبخ ، وإشارات المرور . كل هذا يعد علامات وإشارات ودلالات .

ويوضح (إيكو) بأن الرواقين الذين يعود أصلهم الحقيقي إلى الكنعانيين القادمين من أرض كنعان: فلسطين -لبنان -سوريا -الأردن (والى شمال إفريقيا) ليبيا -تونس -الجزائر - المغرب)، والذين انتقل بعضهم إلى أثينا اكتشفوا

أن أصوات اللغة وحروفها، أي شكلها الخارجي والذي يدعى الدال، وراءه مدلولات متماثلة مع اللغة اليونانية .

وبالتالي فإن هؤلاء المهاجرين أن صح التعبير هم أول من اكتشف الفرق بين الدال والمدلول وبأنهم أصحاب تجربة لا يملكها اليونانيون، ألا وهي تجربة الازدواج الثقافي والحضاري واللغوي، من خلال ثلاث لغات هي: الكنعانية و الأمازيغية، واليونانية.

كما يشير إيكو في حديثه عن السيميائيات القديمة إلى جهود كل من أرسطو و أفلاطون حيث استخدم هذا الأخير لفظ السميوتيك للدلالة على الإقناع ، كما اهتم أرسطو هو الآخر بنظرية المعنى وظل عمله مرتبط أشد الارتباط بالمنطق الصوري إذ سعى في كتابه (العبرة) ليحدد العلاقة بين الألفاظ وبين العلامات، وبين أشياء العالم الخارجي إذ يقول: " إن الأصوات التي يخرجها الإنسان رموز لحالات نفسية، والألفاظ المكتوبة هي رموز للألفاظ التي ينتجها الصوت وكما أن الكتابة ليست واحدة عند البشر أجمعين ، فكذلك الألفاظ ليست واحدة هي الأخرى لكن حالات النفس التي تعبر عنها هذه العلامات المباشرة متطابقة عند الجميع"

2المرحلة الثانية :تمثل مرحلة القديس الجزائري" أوغسطين الذي يعتبر أول من طرح السؤال ماذا يعني أن نفس ونؤول؟ ومن خلال هذا السؤال شكل نظرية التأويل النصي ( تأويل النصوص المقدسة) .وتكمن أهمية هذه المرحلة في كونها تؤكد على إطار الاتصال والتواصل والتوصيل عند معالجة موضوع العلامة.

3أما المرحلة الثالثة: فكانت مرحلة العصور الوسطى، والتي تميزت بفترة التأمل

بالعلامات واللغة، ومن أشهر مفكري هذه الفترة" روجيه بيكون "و" أبيلاز."

4المرحلة الرابعة: فهي تميزت بتعدد أنشطة المفكرين الألمان والانجليز في إرساء معالم نظرية العلامات والإشارات .ومن أبرز مفكري هذه المرحلة" جون لوك "الذي ألف كتاب بعنوان "مقال حول الفهم البشري" وذلك في سنة 1690 م .وقد استعمل لوك في مقاله هذا مصطلح ليقصد به العلم الذي يهتم بدراسة الطرق والوسائط التي يحصل من "Simiotica" سيموطيقا خلالها على معرفة نظام الفلسفة والأخلاق وتوصيل معرفتها، ويكمن هذا العلم في الإتمام بطبيعة الدلائل التي يستعملها العقل، لغرض فهم الأشياء أو نقل معرفته إلى الآخرين.

وفي سنة 1897 أعلن اللساني الفرنسي بيال (Breal) ميلاد علم يختص بمعنى اللغة و) (Sémantique) هو علم الدلالة الذي أتى ليسد تلك الثغرة في الدراسات اللغوية التي كانت تهتم بشكل للدلالة على علم المعاني والذي

يعني به الكلمات ومادتها، وأطلق بيال اسم تلك القوانين التي تشرف على تغير المعاني، ويعالج الجانب التطوري للألفاظ اللغوية ودلالاتها، واعتبر بحثه وقتئذ ثورة في دراسة علم اللغة، وأول دراسة حديثة لتطور معاني الكلمات .

ويعتبر بيال أول من استعمل مصطلح علم الدلالة .

المرحلة الخامسة : وهي التي يتفق جل الباحثين على أنها المرحلة الحاسمة في التحديد العملي للسيمولوجيا وهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالنموذج اللساني البنيوي الذي أرسى دعائمه وأسسها العالم الفرنسي فرديناند دي سوسير في كتابه محاضرات في اللسانيات العامة .

كما ارتبط هذا العلم من جهة أخرى بالمنطق على يد عالم الرياضيات والمنطق شارل سندرس بيرس في أمريكا الذي أطلق عليه مصطلح السيميوطيقا ، إذ يقول في هذا الصدد " إنه لم يكن باستطاعتي يوما ما دراسة أي شيء رياضيات كانت أم أخلاقا أم ميتافيزيقيا أو جاذبية أو دينامكية أو بصريات أو كيمياء أو فلكا أو علم النفس أو علم الأصوات أو اقتصاد أو تاريخ دون أن تكون هذه الدراسة سيميولوجية "

- موضوع السيميولوجيا : تشير جوليا كريستيفا (Julia Kristeva) إلا أن السيميولوجيا

لا تختص بموضوع واحد فهي تهتم بكل ما ينتمي إلى التجربة الإنسانية شريطة أن تكون في إطار السيرورة الدلالية أو ما يسمى في الاصطلاح السيميولوجي "بالسيموز". فموضوع السيميائيات: ( العلامة )

(signe). وهذا مؤشر واضح على أن العلامات وأنساقها هي الموضوع الرئيس للسيميائيات. وهذا ما أكده

جون دوبوا حين قال : "السيمولوجيا ولدت انطلاقا من مشروع دي سوسير. وموضوعها هو دراسة حياة

العلامات في كنف المجتمع". وقد بينت جوليا كريستيفا (Julia Kristeva) موضوع السيميائيات حين

قالت: إن دراسة الأنظمة الشفوية وغير الشفوية –ومن ضمنها اللغات بما هي أنظمة أو علامات تتمفصل

داخل تركيب الاختلافات- هي ما يشكل موضوع علم أخذ يتكون، ويتعلق الأمر بالسيموطيقا" ومن هنا

ندرك موضوع السيميائيات، إذ "تهتم بالعلامة من حيث كنهها وطبيعتها، وتسعى إلى الكشف عن القوانين

المادية والنفسية التي تحكمها، وتتيح إمكانية تمفصلها داخل التركيب".[ تُرى ما العلامة ؟ وما أنواعها ؟

من الصعوبة بمكان إعطاء تعريف واحد نهائي للعلامة. ومرد ذلك إلى كونها "مفهوما قاعديا أو أساسا في جميع علوم اللغة" وإلى كونها "كيانا (entité) واسعا جداً من جهة. ومن جهة ثانية، تُعزى صعوبة تعريف العلامة تعريفاً موحداً قاراً إلى "الخلفيات الفكرية التي يُسْتَنَد إليها في التعريف؛ وهي خلفيات إبستمولوجية ونظرية تختلف من معرّف إلى آخر. إن هذه الاعتبارات التي تجعل صياغة تعريف واحد للعلامة أمراً عسيراً، لم تمنع الباحثين والنقاد من الاجتهاد في تعريف العلامة. وسنحاول في هذا الصدد تقديم بعض التعريفات التي عرّف بها مفهوم العلامة عند الغربيين خاصة.

إن العلامة (أو الدليل) عند سوسير كيان سيكولوجي مجرد قوامه عنصران متلازمان (دال ومدلول). يقول: "العلامة اللسانية وحدة نفسية ذات وجهين... وهذان العنصران مرتبطان ارتباطاً وثيقاً، ويتطلب أحدهما الآخر... ونطلق على التأليف بين التصور (Concept) والصورة السمعية (Image acoustique) العلامة. ونقترح الاحتفاظ بكلمة "علامة (Signe) "لتعيين المجموع، وتعويض التصور "بالمدلول" (Signifié) والصورة السمعية "بالدال". [20] (Signifiant) "ويقصد سوسير بالدال (أو الصورة السمعية) الانطباع النفسي للصوت، في حين يقصد بالمدلول (أو التصور) التمثيل الذهني للشيء. ويرى سوسير أن العلاقة بين وجهي العلامة لا تقوم على المشابهة والمناسبة، بل تقوم على الاعتبار. ومن هنا، فإن مفهوم العلامة عند سوسير مفهوم ضيق، لأنه يجعل علاقة الدال بالمدلول اعتباطية (Arbitraire)، مستثنياً من ذلك ما كان رمزا (Symbole) أو إشارة (Signal). ثم إن سوسير أهمل علاقة العلامة بالواقع، وأوضح أن قيمة العلامة إنما تكمن في علاقتها بما يجاورها من العلامات الأخرى.

تعريف ميخائيل باختين (Mikhaïl Bakhtine) و أميرطو إيكو للعلامة

وإذا

كان تعريف سوسير للعلامة تعريفاً تجريدياً، فإن تعريف ميخائيل باختين (Mikhaïl Bakhtine) يرتبط أشد الارتباط بالفعل السيميائي، لغوياً كان أم غير لغوي. إذ يرى أن العلامة تتناسب والإيديولوجيا، فحيث توجد العلامة توجد -بالضرورة- الإيديولوجيا. وليس كل علامة إيديولوجية ظلاً للواقع فحسب، وإنما هي -كذلك- قطعة مادية من هذا الواقع. إن العلامات (أو الدلائل) لا يمكن أن تظهر -حسب باختين- إلا في ميدان تفاعل الأفراد؛ أي في إطار التواصل الاجتماعي. وبذلك، فوجود العلامات ليس أبداً غير التجسيد المادي لهذا التواصل.

ومن هنا، يخلص باختين إلى ثلاث قواعد منهجية، هي:

\*عدم فصل الإيديولوجيا عن الواقع المادي للعلامة.

\*عدم عزل العلامة عن الأشكال المحسوسة للتواصل الاجتماعي.

\*عدم عزل التواصل وأشكاله عن أساسهما المادي.

ويعرف أمبيرتو إيكو (**Umberto Eco**) العلامة بأنها "حركة (**geste**) تستهدف تحقيق التواصل، ونقل معنى خاص أو حالة شعورية لباتّ إلى مستقبلٍ ويميز إيكو في كتابه "نظرية السيميوطيقا" بين الدلائل الطبيعية والدلائل غير القصصية... الخ.

وتناول بيرس العلامة في سياق منطقي دقيق يعتمد كثرة التفريعات والتقسيمات. مما يجعل فهم مفهومه للعلامة أمرا صعبا. وإذا كانت العلامة عند سوسير ثنائية الطابع، فإنها من وجهة نظر بيرس "علاقة ثلاثية بين ثلاث علامات فرعية تنتمي على التوالي إلى الأبعاد الثلاثة للممثّل والموضوع والمؤوّل ويرى تودوروف ودوكرو في هذا السياق أن "الرقم "ثلاثة" يلعب دورا أساسيا في سيميوطيقا بيرس، مثل الرقم "اثنان" في سيميولوجيا سوسير تماما إن مفهوم العلامة في سيميوطيقا بيرس متسع، بحيث يشمل -إلى جانب العلامات اللسانية- العلامات غير اللسانية .